صبي من بلدنا..

(١)

أخيرًا وافق والدي على إلحاقه بالعمل في منزلنا..

وافق رغم معارضة أمي الشديدة خوفًا على أخواتي منه!

حضر من الريف، وهو من أقارب والدي، تَخَلَّف عن (الإلزامي) بدون سبب كما يحدث كثيرًا مع أولاد الفلاحين الغلابة..

كان ترتيبه الخامس بين إخوته وأخواته الثمانية، ولم يفلح أحدهم في التعليم– أو لم يجد الفرصة للاستمرار فيه– مما اضطر الأب وهو فلاح أجير لتوزيع بعضهم للعمل بمنازل الأقارب والمعارف بالبندر نظير المأكل والمشرب والملبس، بالإضافة إلى راتب شهري يحصل عليه الأب شخصيًا ليخفف عن كاهله بعض الشيء..

وعلى الفور أخذت أمي بإعداد طعام الغذاء، وبعد ذلك تم

إعداد الحمام للصبي بعد أن خصَّصت له بعض ملابس أخي الصغير الذي يقاربه في السن..

والحق أن الصبي قد اكتسب عطفنا وحبنا جميعًا من أول وهلة، وخاصة أختي الكبيرة (سلوى) التي أخذت على عاتقها مهمة نظافة وتسوية شعره الأصفر الضارب للحمرة، نظرًا لإعجابها الشديد به، فيما ألقت بطاقيته الصوف من النافذة.

وبدا جماله الريفي الأصيل جليًا فقالت: سبحان الخالق!، أما والدي فقد لعن الفقر من كل قلبه!

ولما كان يتمتع بأخلاق القرية.. من أدب وخجل وشهامة وحس مرهف، فقد نتج عن ذلك إعجاب كل من يراه أو يحادثه..

(٢)

وجاء وقت الجَد.. وبناء على رغبته الملِحَّة في العمل، قررت أمي تدريبه على بعض الأعمال المنزلية الخفيفة، ولكن أختي سلوى اعترضت على ذلك بشدة قائلة: إن هذه الأعمال من اختصاص البنات وحدهن، وكانت غالبًا ما تقوم بنفسها بعمل ما يُكَلَّف به من قِبل أمي، فيما كانت أمي تردد بصوت خفيض: (وما جدوى وجوده في البيت؟!).

وبدأت الخلافات تدب بين (سلوى) وأمها، فالأولى متعاطفة معه جدًا، والأخرى تعمل على الاستفادة منه قدر الإمكان، وإلا فلا جدوى منه.

وأنا شخصيًا لم أقتنع بالمرة بوجوده بالمنزل، ولكن لم أحاول إحراج والدي الذي قَبِلَه على سبيل المساندة والإحسان فقط، نظرًا لظروف والده..

ومرت الأيام سريعًا كعادتها، وكبر الصبي وبدأ ينطوي على نفسه رافضًا وصفه في المنزل (كخادم)، وكثيرًا ما كنا نضبطه

متلبسًا بـ«البكاء»..

وأحيانًا كان يفضفض لأخي الصغير بهمومه الخاصة، نظرًا لصداقتهما الجمة، وتقارب السن بينهما، وكان دائمًا يغدق عليه من مصروفه الشخصي، وكانا يقضيان أوقاتًا طويلة أمام شاشة التليفزيون أو الكمبيوتر.

وذات يوم أضرب عن الطعام!، وعندما حاولنا معرفة السبب قال والدموع تترقرق من عينيه قائلاً:

- علشان آكل لازم أشتغل!، والشغل ده مش عاجبني ومالوش مستقبل! أعيش طول عمرى خدام؟!

ومنذ هذه اللحظة أخذت على عاتقي أنا وأختي (سلوى) التفكير جديًا في تحديد مصير ومستقبل لهذا الولد يضمن له حياةً كريمةً.. وهذا حقه..

(٣)

بدأت الأسرة، وعلى رأسها والدي، في التفكير جديًا في بناء مستقبل للصبي يضمن له حياةً كريمةً فهو أمانة في أعناقهم!

وعندما لاحظ الصبي هذا الاهتمام خرج من حالة الانطواء واليأس، وانفتحت شهيته للحياة وعادت الابتسامة إلى شفتيه، وراح يؤدي أي عمل يُكَلَّف به في المنزل بهمة ونشاط!

وفي زيارته الشهرية لابنه، حضر والده ومعه الكثير من خيرات القرية، والفلاح مهما كان فقيرًا فإنه يعرف الواجب جيدًا.

وبعد الغذاء اجتمعت الأسرة بحضور الضيف لاتخاذ قرار في مصير الولد ومستقبله.. وكان رأي الرجل أن يصطحب ابنه ليعمل معه في فلاحة الأرض بالأجر، ولكننا اعترضنا بشدة على هذا الرأي، كما أن الولد نفسه رفض، خاصة وأنه اعتاد حياة المدينة، وكوَّن صداقات في الحي!

فقال والدي:

- إيه رأيكم يتعلم حِرفة يختارها هو بنفسه؟!

فقال الولد بحماس:

- وأنا موافق!

وقلنا جميعًا: وإحنا موافقين.. الولد ذكي وبيتعلم بسرعة!

وقال والده:

- لكن الإقامة والمبيت مشكلة.

فقال والدي بترحاب:

- ماتحملش هم الموضوع ده، واهو برضو ابننا وماهواش غريب.

وازدرد الرجل ريقه، وتهلل وجه الطفل بالفرح لهذا الاهتمام والترحاب اللذين يرجعان أولاً وأخيرًا إلى حُسن أدبه وأخلاقه.

ولكن الأم تململت في جلستها، ولم تنطق بكلمة.. وكانت تنظر لوالدي والغيظ ينط من عينيها! فهذا عبء جديد فوق الأعباء التي تنوء بها الأسرة.

وقال والد الصبي:

- أنا عندي اقتراح يا ريت توافقوني عليه.. باقول يعني يتعلم عندك يا حاج في ورشة النجارة! واهي صنعة يتعايش منها، ولما ربنا يكرم يشوف له مكان ينام فيه.

ووجد هذا الاقتراح استحسانًا من الجميع، بما فيهم الولد..

واستطرد والدي قائلاً:

- على بركة الله، ربنا يوفَّقه ويبقى أسطى قد الدنيا!